الفصل الثاني عشر

أطفال الشعب بالقـــاهرة

كان الكاتب في صغره طالباً بالمدارس الابتدائيـة والثانوية في مصر ، ويعرف العلاقات بين المدارس المختلفة ؛ ويعرف ما كان يحدث بين طلبتهـا عندما يلتقون على الملاعب الرياضية للعب والتنافس فيما بينهم ، وكان يشهد المعارك تدور بينهم يثيرونها لخطأ توهموه صدر من الحكام ، او تحكم يعتبرونه جائراً أو لمجرد عدم رضاهم عن نتيجة اللعب ، او لأن المغلوب من الطرفين يجن لأنه غلب في ميدان الرياضة ويريد أن يستسلم لجنونه في ميدان الضرب والمعارك الحقيقية ، وقد كان في صغره يخشى الألعـاب الرياضيـة في المدرسة وما تجره من الثورات وإسالة الدماء ، ويذكر أن الطلبة كانوا يضربون ، والمدرسـين يضربون ، ونظار المدارس يضربون ويهـانون ، والجميع عاجزون عن أن يروا لهذه الحالة حلا أو علاجا .

وقد ساهم الكاتب من سنة مضت في اجتماع للمصالحة بين ناظرين لمدرستين ثانويتين من أهم المدارس في القطر ؛ فقد لعب طلبة المدرستين ، ولم يتموا اللعب فيما بينهم بل قلبوه إلى معركة حامية طار شرارها إلى ناظر منهما فناله منها شيء من الطوب والشتائم والاهانة ، وانتقـل النـزاع بين الطلبة إلى مدرسي المدرستين وناظريها ، واستمرت بينهما العداوة والحقد .

ويذكر أيضا أنه من أسبوعين اثنين قابل أحد ضباط بوليس القـاهرة عائداً من حادثة تحقيق بين طلبة مدرستين آخرين متهمين لأنهم نزلوا ميدان اللعب وقبل أن يفرغوا من اللعب احالوه إلى ميـدان قتال سالت فيه دماء بعض الصغار ، وطلب الاسعاف لتضميد الجراح والبوليس للتحقيق وضبط

الواقعة ، ولسنا نلوم الطلبة فى هذا وإنما اللوم واقع على المربين الذين لا يقومون بتنشئتهم على الأخلاق الرياضية الفاضلة ، واللوم فيه واقع أيضا علينا نحن كشعب إذ أن البيئة التي أوجدناها لهؤلاء الصغار من شأنها أن تدفع بهم إلى مثل هذه التصرفات.

وفى القاهرة ما يقرب من العشر منشآت تعمل كلها على خدمة أطفال الشعب بكل الطرق والوسائل ، ومن هذه الوسائل الألعاب الرياضية ، وخطر ببال البعض منا أن نقيم مباريات فى كرة السلة بين أطفال هذه المعاهد وقد يصل عددهم إلى الألفين من الصبيان من أطفال الشعب ، وقد كنا نخشى عاقبة هذه المباريات بينهم ، كان البعض منا يخاف أن ينقلب اللعب إلى ضرب وشج الرؤوس ، وأن ينضم كبار الحى إلى صغارهم للدفاع عن هؤلاء الصغار خوفا عليهم من أن لا تكون نتيجة المعركة فى جانبهم ، كل هذا يحتمل ونفوس أفراد الشعب كما نعرف من استعدادها لقبول الانفعالات المفاجئة الشديدة والتصرف بمقتضاها ، هذا كله يحتمل الوقوع ، لأننا سنضطر لأن نجعل صبيان حى العسال يواجهون صبيان حى مصر القديمة والسيدة زينب والقلعي والطيبي والمحمدي إلى آخر هذه الأحياء المستعدة لمناحرة بعضها بكل سلاح يقع تحت أيديهم إذا ما أتاحت لهم الصدف فرصة المقابلة والاختلاف على أمر من الأمور.

ولحسن الصدف أن الرواد الذين يقومون بالخدمة لهؤلاء الصبيان فى جميع هذه المعاهد والرجال القائمين على شئونها الادارية والمالية إلى آخره ، لحسن الحظ أن هؤلاء جميعاً قوم مثقفون ، مدفوعون إلى هذا العمل بحب الخير المتأصل فيهم ، لهم من الفهم والدراية بشئون الأطفال وتربيتها ما يجعلهم أهل للاضطلاع بمشروع يضم هذه الأحياء جميعا ، وما يجعلهم يشتدون فى عقاب مثيري الضغائن والفتن دون نظر إلى فائدة معهد بذاته أو جماعة بذاتها ، فكل هيئة منهم كانت مستعدة لايقاع أشد العقوبات بهيئتها ومعهدها

دون التماس المعاذير والمبررات ، ولم يكن هم واحدة من هذه الهيئات أن تظهر بمظهر البرىء أو بمظهر المحافظ على القوانين والتفاخر بهذا بين الجماعات الأخرى وإنما كان هم كل واحدة منها أن يتصرف الصبيان بما يليق بالروح الرياضية وبالمحافظة على القوانين دون اعتبار آخر .

وكان من رأى الخائفين أن يحكم المباراة افندية كبار تظهر عليهم آثار الوجاهة والعظمة ، ثم يكونون شديدى الوطأة على المخالفين ، يضبطون المباريات بكل حزم وشدة حتى يرتدع من الأطفال من يريد أن يثير الاضطرابات او يركب رأسه لكل حادث بسيط .

وكان من رأى المفكرين فيهم أن هذه المباريات هي لأطفال الشعب ، وانها ستمتد وتكبر وقد تضم الاف الصبيان وقد يصبح من المتعذر علينا إدارتها بحكام من الافندية إذ قد تتطلب هذه المباريات مئات منهم لا قبل لنا بتدبيرهم ، وبعد فان هذه مباريات لاطفال الشعب ، وكرامة هؤلاء تتطلب أن يحكموها هم ويشرفوا عليها هم دون تدخل منا ، ثم نحن فى مفتتح عهد المباريات ويحسن بنا أن نضع لها التقاليد الصالحة من البدء حتى لا نضطر فى المستقبل لتغيير السياسة مع ما يتطلبه هذا من الاضطراب فى العمل والتبلبل فى التصرفات ، يحسن بنا من الأول أن نلجأ لتقليد يصلح للمستقبل بعد مران طويل وبعد ممارسة من الصبيان بارشادنا ، وتحت ملاحظتنا ، فليحكم هذه المباراة اطفال الشعب انفسهم ، ولنفتح عيوننا ونتخذ اهبتنا لتوطيد الوضع لحكام منهم ، والضرب على ايدى العابثين مهما كان شأنهم أو مركزهم فى هذه المعاهد .

ومن حسن الحظ أن القائمين بشئون هذه المعاهد كما قلنا قوم يعنيهم فائدة الصبيان ونفعهم أكثر مما يعنيهم الكسب الرياضى لمعاهدهم وأكثر مما يعنيهم التظاهر بالكمال وأن معاهدهم لا تعلو عليها معاهد ، ولأنهم بهذا الوضع من الفهم والادراك قبلوا هذه السياسة وآلوا على أنفسهم أن ينفذوها بكل ما يمكنون من سلطة وقوة ، فنظموا اللجان وألقوا على كل فرد منهم

واجباً من الواجبات ، ثم وضعوا قوانين اللعب وشروطه ، وحددوا له مواعيده ، واختاروا له حكامه من بين أطفال الشعب أنفسهم ، وأخذت المباريات بينهم سبيلها .

وللاسف أو لحسن الحظ فى رأي بعضهم ، أنه قد حدث فى المباريات الأولى ما كان يخشاه بعض القائمين على هذه المعاهد ، حدث أن الصبيان هاجوا وماجوا ، وشرعوا فى ضرب الزائرين من الحي الآخر ، وشرع بعض رجال الحي يتدخلون فى الموضوع ، وقد كاد الخرق يتسع على الواقع لولا حكمة الموجودين من المشرفين فقد منعوا الطرفين وفضوا الخصومة وسربوا الضيوف إلى حيث يستطيعون العودة إلى حيهم دون أن يشتد الضرب والقتال وقبل أن تسيل فيه دماء قليلة أو كثيرة .

ثم اجتمعت اللجنة المشرفة على هذه المباريات وكان من ضمن أعضائها المشرف على النادي المعتدي أي المضيف ، وكان من تشبعه بروح العدل وبالحب لخير أطفال الشعب أشدنا قسوة على معهده يطلب له العقوبة الرادعة ، لا بل كتب هو بنفسه مكتوباً شديد اللهجة يوجه من اللجنة إليه ، فيه تعنفه اللجنة أشد التعنيف وتطلب منه قراءة هذا فى اجتماع عام فى ناديه ، ثم قررت اللجنة عقوبة للنادى وأخري للفريق وثالثة للصبي المعتدي ، ونفذ كل هذا في الحال ، وكانت العقوبات رادعة ، وانتهت هذه الحادثة وسرنا فيما كنا سائرين فيه من إقامة المباريات وترك حكمها للصبيان أنفسهم .

وإذا بحادثة أخري تشبه الأولى من حيث أنها محاولة للعبث بالقوانين والنظام ، ولكنها لم تكن مثل الأولى فى خطرها أو أهميتها ، ذلك أن صبياً من أحد الأندية لم يعجبه قرار الحكم فى نقطة من النقط ، وظنه مجحفاً بجماعته ، وخيل إليه أن الحكم متحامل عليهم ، فما كان منه إلا أن هجم على الحكم بعد اللعب وانتزع منه السجل ومزقه أربا .

ثم اجتمعت اللجنة ونظرت فى أمره وعاقبته وعاقبت جماعته معه . وانتهى هذا الحادث أيضاً على خير .

ولم تحدث حوادث قط بعد هذين ، وتمت المباريات كلها وكانت تقرب من الخمسين ، أى أن صبيان الأحياء الفقيرة المختلفة تزاوروا فيما بينهم مثل هذا العدد ، وعوضاً عن أن يلجأوا الى الضرب والنزال ابتدعوا سنة حميدة أصبحت هى القاعدة المرعية بينهم وأصبحت تقاليد يسير عليها كل أطفال هذه المعاهد دون أن يشذ أحد ، وذلك أن الزائرين كانوا يستقبلون بالترحيب ، وتتقدم لهم المرطبات والحلوى سواء اكانوا غالبين أم مغلوبين فى اللعب ، ثم كانوا يودعون بكل اكرام وكرم ، وأصبحت هذه هى القاعدة المتبعة فى جميع الحالات ، ولم تحدث فى جميع المباريات وقد استغرقت ما يقرب من الثلاثة أشهر سوى الحادثتين اللتين ذكرتا .

وبعد انتهاء المباريات جمعنا أطفال الشعب المنتمين لهذه المعاهد كلها فى مكان واحد وكان عددهم يقرب من الألفين حيث أقاموا حفلة كبيرة حضرها الكثيرون من كبار الناس وقاموا فيها بألعابهم المختلفة وبتمثيل القطع الصغيرة المسلية وبعض الأغانى الحديثة ، وكان النظام فيها لا يفضله نظام ، يوضع لضبط نشاط صبيان .

ويخيل للكاتب أن هذه بداءة حسنة فى توطيد العلاقات بين أطفال الشعب ، وأن أسساً قد وضعت ، وتقاليد قد وجدت من شأنها أن تعين فى السنوات القادمة على تدريب هؤلاء الصبيان بحيث يفهمون العلاقات بين الجماعات والأحياء على وضعها الصحيح ويتصرفون فى المعاملة بما تقضى به الروح الرياضية من قبول الهزيمة بما يجب أن تقبل به من روح التسامح وقبول النصر بتواضع يخفف عن المغلوب وقع الهزيمة . لقد قرأ الكاتب فيما قرأ من كتب الأفرنج أن المصري لا يرضى ان يكون عضواً فى فريق

مهزوم ، وأنه يحرص على أن يكون فى الفريق الفائز دائماً أبداً ، وقد شاهد الكاتب صبياناً من المصريين لا يرضون بفرقهم المغلوبة المهزومة بديلا .

وقبل أن ننتهي من هذا الفصل القصير نروي قصة مثل آخر يدل على مقدار ما أفاد أطفال الشعب من مثل هذا النظام ، وأنهم مستعدون أن يصبحوا من خير رجال الغد إذا ما توافرت لهم البيئة الصالحة ، وإذا ما وجدوا الارشاد والعناية الضروريين لتعينهم على فهم الحياة على وجهها أتم وأفضل ، وعلى التصرف فيها بطريقة أعود عليهم مما يفعلون الآن ، فهم يفهمون قيمة الكرامة الانسانية والشرف ، وقيمة الوقت وأهمية العمل والمحافظة على النظام والقوانين الى آخر هذه القائمة التي تبنى على أساسها الحياة الاجتماعية فى أية أمة ، يفهمون كل هذا إذا ما وجدوا من يتصرف بمقتضاه أمامهم ومن يعينهم على التصرف تبعاً له فى حياتهم ونشاطهم وهم بعد أطفال .

كانت كليتان من كليات جامعة فؤاد الأول بالقاهرة على موعد للتبارى فيما بينهما فى كرة السلة ، وكان ذلك في ملعب واحدة منها ، ولعلة ما لا يذكرها الكاتب الآن كانا فى حاجة إلى حكم يسير المباراة بين الفريقين ، ولعلة ما لا يدريها الكاتب أيضاً اتفق الفريقان على استدعاء صبي من أطفال الشعب عضو فى نادي كوبرى الليمون ليحكم هذه المباراة ، ولم يدر الكاتب بكل هذا الا بعد حدوثه بزمن طويل أى ما يقرب من الشهرين ، وإنما سمع به بعد حدوثه بمدة طويلة من طالب فى الجامعة عضو في أحد الفريقين المتبارين — قال :

كان موعد المباراة ، ونحن معهودون فى مدارسنا على النزول إلى الملعب بعد الموعد بربع ساعة أو نصف ساعة ، ولكن الصبي الحكم حضر إلى الكلية وبعد حضارته ، ونزل فى الملعب ووقف وكان بفناء الكلية ساعة كبيرة

معلقة فيه . فوضع الصبي الصفارة في فمه ثم أخذ يراقب الساعة وفي الموعد المحدد بالضبط لا قبله ولا بعده نفخ في صفارته ايذانا ببدء اللعب، ولم يكن أحد من الفريقين قد نزل إلى الملعب بعد، ومرت الدقائق، بعدها نزل الفريقان المتباريان ، وإذا بالحكم ينفخ في صفارته ايذانا باللعب فلما اجتمعنا وتفقنا في أماكننا إذا به يقول «ضربة جزاء ضد فريق كلية كذا لتأخره عن موعد المباراة » فاعجبنا لهذا وعجب الحاضرون كلهم من الطلبة والاساتذة، والغريب في الأمر أن الصبي كان وحيدا بمفرده غريبا في هذا الجمع الحاشد، وبعد أن فرغ رئيس الفريق الأول من قذف الكرة إلى الحلقة قال الحكم « ضربة جزاء أخرى ضد الفريق الثاني لتأخره عن موعد المباراة» وكانت ضربة الجزاء، ثم نفخ في صفارته وأجرى المباراة بحزم جعل كلا الفريقين يهابونه ويعملون حسابه وحساب أوامره من أول اللعب إلى آخره .

وانتهى حديث الطالب.